٩٩/٥/٤/٢٨
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٤م

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل
الشيخ عبد الله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبد السلام المسدّي — رئيس التحرير
د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

ص.ب المجلة: ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد: ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن: ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

في نقد المستشرقين (★)

فرانسوا ديْ بلوا

تحوّل نقد الاستشراق والمستشرقين في السنوات الأخيرة الى «موضة» لا يتخلّف أحدٌ عن المشاركة فيها. أمّا المستشرقون في خضمّ هذا النقد فهم غير الشرقيين الذين انشغلوا بدراسة الشرق تاريخاً وثقافةً ولغاتٍ وما شابه. وسننطلق من هذا **المصطلح** في كلمتنا هذه. مع ملاحظة أننا سنتناول هنا فقط أولئك الذين اهتموا بالشرق الأدنى؛ بالمشرق العربي - متجنبين التعرض لإشكاليات الدراسات الاستشراقية المهتمة بالشرق الأقصى (الهند والصين) وبتركيا، وبالتاريخ القديم لهذه الأصقاع. ولا يفوتنا هنا بدايةً أن نُلاحظ أن موقف الهنود والصينيين والأتراك من الدراسات الاستشراقية عن تاريخهم ولغاتهم يختلف نوعاً ما عن موقف المثقفين العرب المسلمين من هذا النوع من الدراسات. فالترك والهنود والصينيون أقلّ عداءً للاستشراق، وأكثر إيجابيةً تجاه بحوث الغربيين عن بلدانهم. وإذا كنا قد رأينا هذه الملاحظة التقديمية ضروريةً لتحوير مجال النظرة؛ فالذي نزيُدُه هنا أن انشغالنا سينصبُ على الجانب الجدلي من رؤية العرب المسلمين للمستشرقين. وهذا الجدل الذي بدأ في الأوساط العربية ترك آثاره في عالم الاستشراق الغربي أيضاً إذ انشغلت جماعاتٌ من المستشرقين في عقود السنين الماضية بالنقد العربي للاستشراق مؤيِّدةً أو معارضةً أو مُلاحِظة.

وليس هناك على أيّ حال اتفاقٌ حول **مفهوم الاستشراق** ومضامينه وحدوده. فليس من النادر أن نجد كُتّاباً يطلقون **الرمز** هذا على العلم الذي يُعالج **الصورة** المعقَّدة التي تتملك الغرب عن الإسلام والشرق؛ ليس من جانب المختصين بالدراسات الإسلامية فقط؛ بل من جانب كلّ أولئك الذين يُعْنَون بالشرق من غير المشرقيين. وقد كان واضحاً أن إدوارد سعيد استخدم **المصطلح** بهذا المعنى. على أنّ من

(★) فرانسوا دي بلوا. دارسٌ أمريكيٌّ شابٌّ ذو نزعةٍ اشتراكية. وما يقدّمه هنا وجهة نظرٍ للنقاش. ترجمها إلى العربية رئيس التحرير.

المتمحور حول تحرير أخوة الدين المضطهدين في الشرق، وخلاص الأماكن المقدسة المغتصبة ـ مجهولاً من قبل المسلمين. كما أن هؤلاء أنفسهم، لم يكونوا في وارد الشك بوجود هذا الهدف، لأنهم لا يجدون في تصرفهم السابق ما يساعد على ولادة عملية ردّ من هذا النوع»[٢٨]. استتبع الرؤية الأولى ردة فعل عفوية عند المسلمين، امتازت بظاهرتي الخوف والقلق السياسيين، ولم تأخذ وجهاً دينياً إلاَّ في فترة لاحقة. فقد كانت ردة الفعل الأولى، في عموم المنطقة المحاذية لبيزنطة تجاه الغزو الغربي المتسارع والمترافق «مع النار والـدم، على شكل حالة عامة من الخوف والهم»[٢٩]. وبرغم الخسارة الجسيمة في الأرواح والممتلكات التي أسفرت عنها أعمال الافرنج في الأراضي التي وقعت تحت سيطرتهم، والتي كانت إلى حد ما مجاورة لها، فإن المسلمين عبَّروا عن شيءٍ من «الكراهية والبغضاء، تجاههم، وهذه نتيجة طبيعية للرعب الذي أحدثوه، بيد أنها لم تأخذ بشكل عام وجهة دينية. كما أن الوعي بالحرب المقدسة لم يكن قد ظهر بعد؛ وقد اتضحت هذه الظاهرة بصورة نقية في قصائد ذلك العصر، والتي كانت مؤثرة، خاصة في أشعار اللاجئين المؤلمة»[٣٠].

لقد احتاج المسلمون وقتاً طويلاً لكي يتمكَّنوا من إدراك التمايز العرقي ـ الديني، الذي يفصل الغربيين عن مسيحيي الشرق عامة، وعن البيزنطيين بشكل خاص. ففي بداية الحركة الصليبية، كان المسلمون يتحدثون عن هجمات الروم ـ كما يسميهم **ابن الجوزي** ـ، وذلك انسجاماً مع الاسم الذي كان يعرف به المسيحيون المجاورون لبلاد الاسلام. وفيما بعد، بدأت صفة «**الروم**» تتراجع أمام تسمية أخرى ذات دلالة عرقية: **الافرنج**، وهي الصفة التي تميز سكان الامبراطورية الكارولنجية عن سكان بيزنطة، والتي شرح أسباب تداولها المسعودي في سياق تبيانه لضرورة التمييز العرقي بينهما[٣١]. وعلى مستوى آخر، «ساهم الشعور بضخامة التهديد الافرنجي، والشعور بالخصومة الدينية بين الافرنج والمسلمين من خلال خلق صورة جديدة عن الافرنج، منفصلة كلياً عن تلك التي للبيزنطيين، وهزّ حالة اللامبالاة، والقضاء على الاعتقاد باحتمال التسوية. كل ذلك، ساهم في تمهيد الطريق، لدى بعض الأوساط، أمام يقظة روح الحرب المقدسة»[٣٢].

لم يكن بإمكان هذه الرؤية أن تتطوَّر إلى تحديد واضح للهوية العرقية ـ الايديولوجية للصليبيين بدون وضوح غاية هؤلاء. فالفكرة التي تعاملت مع الحملة الصليبية، باعتبارها حادثاً عرضياً ومؤقتاً بدأت تزول، وحلّ مكانها القلق من تحوّل هذا الحضور الافرنجي إلى سيطرة دائمة، قابلة للاتساع والتوغل في بلاد الشام، بل وفي أكبر المراكز الاسلامية في ذلك العصر (دمشق، بغداد، القاهرة). لذلك، وبعد فترة قصيرة من انتهاء الحملة الصليبية الأولى، بدأت بعض الاوساط الاسلامية، المجاورة لبيزنطة بشكل خاص، تتلمَّس بوعي اتساع وديمومة الخطر الافرنجي. وبالتالي، «لم يعد ينظر إلى الاختراق الافرنجي كغزوة خاطفة، مثل تلك التي قام بها

حنا الدمشقي، ولا مجرد حضور مفعم بالعدوانية، متاخم لسورية ومماثل للحضور البيزنطي في القرن الحادي عشر»[٣٣].

وهكذا، ما إن بدأت الخبايا الايديولوجية للمشروع الصليبي تخرج إلى النور، حتى برزت ضرورة الاستعداد الذاتي الاسلامي من أجل حماية المرتكزات الايديولوجية الخاصة بالعقيدة الاسلامية، وضرورة التأهب دفاعاً عن منجزات الاسلام السياسية والحضارية. وبالتالي، بدأت الأشكال الدينية ـ الايديولوجية للتناقض الاسلامي ـ الصليبي تخرج عن صمتها، بحيث تحوَّلت من خلالها القدس من ذريعة للهجوم الغربي إلى هدف مركزي يتحد المسلمون للدفاع عنه. وكما جعل البابا أوربان الثاني من الأماكن المقدسة أساساً لعصبية غربية معادية للاسلام، استطاع صلاح الدين أن يجعل القدس أيضاً محوراً للعصبية الدفاعية عند المسلمين، وذلك بهدف تحريرها من سيطرة الافرنج[٣٤]. وبذلك، تكون ردة الفعل الاسلامية قد بدأت تنمو وتنتقل من إحساس أولي بالخطر السياسي إلى قلق متزايد على مصير الاسلام برمته، ومن ثم تنتهي بدعوة صريحة إلى وحدة العمل دفاعاً عن الاسلام.

عملياً، تمحورت ردة الفعل هذه حول أسس ثلاثة: «الإصرار على الهوة التي تفصل الافرنج والمسلمين. الاحتجاج ضد اللامبالاة التي أبداها المسلمون في مواجهة هذا الحدث ـ الحملة الصليبية ـ وتجاه مبدأ الجهاد الذي ينتج عنه. وأخيراً ـ كنتيجة طبيعية ـ الدعوة إلى الجهاد». ورغم أهمية هذه الأسس مجتمعة، فإن أهداف الجهاد لم تكن قد تحددت بوضوح في المرحلة الأولى، «ولم تتجاوز، في كل الأحوال، الحفاظ والدفاع عن الأراضي الاسلامية في مواجهة الهجمات الافرنجية؛ وهذا ما يستتبع، بالتأكيد، التعاضد»[٣٥].

انطلاقاً من كل ما تقدم، نمت عصبية المدافعة عن الاسلام، وازدادت وضوحاً وتحوَّلت بشكل ظاهر إلى «ردة فعل ايديولوجية»، استمدت مقوماتها من نظاميْ الفكر والقيم الخاصين بالحضارة الاسلامية. وكان بديهياً أيضاً أن تتحول العصبية من مجرَّد حرب ضد الصليبيين إلى ظاهرة ايديولوجية، خاصة وأن هذه الحرب كانت تتماهى بشكل قوي مع الانتماءات الفكرية والحضارية والدينية؛ كما أن زمن الصراع كان يضفي على التناقضات السياسية هالة دينية نافرة، وذلك بسبب اختلافها، كما قلنا آنفاً، عن طبيعة المواجهات التي اتخذت تاريخياً شكلاً سياسياً رئيسياً، على غرار ما جرى بين بيزنطة والإسلام. إضافة إلى ذلك، وفيما يتعلق بصراع الايديولوجيات، ينبغي التذكير بأن مبدأ الجهاد لم يتحرَّك وحيداً، إذ إنه «ومنذ منتصف القرن الثاني عشر، بدأ الجهاد يلتصق بعمق نظام القيم الذي كانت رايته حركة «التسليح الاخلاقي»؛ لما كان الانصهار الايديولوجي حاسماً في عملية انضواء المؤمنين في مواجهة الحركة الصليبية»[٣٦].

وعلى هذا الأساس، خرجت العصبية الاسلامية من رحم العنف الصليبي، الذي وحدت أهدافه بين المسيحية

حقيقة أن مستشرقاً عظيماً **كنولدكه** ما صرّح أبداً تصريحاً ذا طابعٍ سياسيٍّ (متصلٍ بمجال دراسته على الأقلّ) يبدو لنا من ناحيةٍ أخرى أمراً يدعو للتأمّل. على أنّ استغرابنا هذا لا يدعونا إلى الزعم أن الرجل كان عميلاً للإمبريالية. إنّ الممكن في مجالٍ كهذا نقد «الغربة عن العالم» التي سيطرت على أعدادٍ من المستشرقين الأوائل. لكن هذه **الغربة** تبدو **فضيلةً** الآن، مقارنةً بتكالُب العاملين الغربيين في مجال بحوث الشرق المعاصر على الإسلام ماضياً وحاضراً؛ «خدمة» لأهداف الإمبريالية الحديثة. وقد أعرض باحثون معروفون ـ يتميزون ببعض النظافة ـ عن الدراسات الشرقية المعاصرة، وعادوا للتأمل الكلاسيكي هرباً من البترول وآثاره من ناحية، وللراحة التي يُحِسُّونها في «عطر» المخطوطات والنصوص القديمة الراكدة. فإذا لم تكن البحوثُ القديمةُ عظيمة الفائدة الآن، فإنها قليلةُ الضرر سياسياً في المدى المنظور.

وإذا كان مسوّغاً لنا أن نكشف الجوانب السلبية لدراسات الشرق المعاصر في الغرب؛ فليس من العلمية في شيءٍ أن ننكر كلَّ فائدةٍ لها. ولكي نكون دقيقين عند النظر للمسألة علينا أن نُميّز بين الأيديولوجيين والصحفيين، ومَنْ يُسَمّون «خبراء الشرق الأوسط» من جهة؛ والباحثين الجادّين الآخرين من جهةٍ ثانية. ذلك أنّ «بحوث» الفئات الأولى ضارّة أو هي في أحسن حالاتها بغير قيمةٍ علمية. بينما تتماسكُ دراساتُ الفئة الثانية وتظلُ على أي حالٍ قابلةً للنقد والأخذ والردّ؛ حتى عندما تكونُ في صورتها العامّة متسمةً بطابعٍ عدائيٍّ تُجاه شعوب المنطقة. إننا نستطيع التعلُّم من العدوّ العالم أكثر مما نستطيع ذلك من الصديق الجاهل. ولنوجز هنا الموقف من النقد اليساري للمستشرقين. إنّ هذا النقد ـ كما سبق أن قدّمْت ـ مطلوبٌ ومسوَّغ لكن التعميم فيه غير مسوَّغ وغير علمي. فحقيقةُ أن هناك مستشرقين يخدمون الإمبريالية لا تعني أن المستشرقين جميعاً عملاء كما لا تعني أنَّ الاستشراق شرٌّ كله. ثم إنّ أعمال المستشرقين اليمينيين لا يجوزُ أن تُرى بعد النظر في أسماء مؤلفيها (من أمثال برنارد لويس وبيستون وشيڤالييه). إنّ علينا في حالاتٍ كهذه أن نتأمّلها بعين ناقدةٍ، وأن ننشغل **بالصورة** أو **الصُوَر** التي يقدّمونها عن الموضوع الذي يعالجونه.

وقد بدأت موجاتٌ من النقد تتوجه إلى الاستشراق من مواقع رجعية ويمينية بلغت ذروتها في سيلٍ من الكتيّبات، في سبعينيات هذا القرن. وأكثر ما يُزعجُ هؤلاء الناقدين اليمينيين في الاستشراق هو نهج النقدية التاريخية الذي يُعالجون به الحِقَب المبكرة من تاريخ الإسلام. وينظر الرجعيون في العالم الإسلامي إلى دراسات المستشرقين كلّها باعتبارها مؤامراتٍ من جانب المسيحيين واليهود لتدمير الإسلام. وقد ذكر بعضُ الناقدين من هؤلاء أنّ المستشرقين والمبشّرين المسيحيين واليهود هم رأسُ الحربة الموجّهة فكرياً لتدمير الإسلام والتآمر على المسلمين. فالمستشرقون في نظر العرب التقليديين هم مبشّرون مستترون. ولا

يخلو الأمر لدى هؤلاء «الأزهريين» من مُحاولاتٍ للظهور بمظهرٍ تقدُميٍّ عن طريق الربط بين الاستشراق والاستعمار. والعلاقةُ بين هذين الطرفين غير منكورة قديماً وحديثا كما أسلفنا. بيد أنِ الجهات التي تنشُرُ شتائم هؤلاء سواء كانت مؤسساتٍ أو دُوَلاً معروفةٌ بتحالُفها مع الأمريكيين وتمثيلها لمصالحهم مما يجعل دعواهم مقاومة الاستعمار بغير قوةِ إقناع.

فصحيحٌ أنّ بعض الدول الاستعمارية كانت قد أرسلت مبشِّرين أو دعمت إرسالهم إلى الشرق الأوسط لدعوة مسلميه ومسيحييه (المشرقيين) إلى الكاثوليكية والبروتستانتية. وصحيحٌ أن بعض هؤلاء المبشِّرين (من ذوي العداء الشديد للإسلام) عمل بالإضافة إلى التبشير تحت رداء الاستشراق والنزاهة العلمية. وربما وجدنا في بعض بلدان الشرق حتى اليوم أُناساً مثل هؤلاء المبشِّرين ممن يدَّعون العمل كمستشرقين. لكنّ الوضع السائد اليوم يدلُّ على أنّ الدول الإمبريالية يئست من إمكان ردّ المسلمين عن دينهم، كما يئست من ذلك أيضاً المؤسسات المسيحية الغنيةُ بالغرب. ولهذا انعدمت المحاولاتُ الراميةُ لتبشير المسلمين أو كادت. ولا يلقى التبشير والمبشِّرون من الاستعماريين الجُدُد أيّ اهتمام. إنهم مهتمون منذ ثلاثة عقودٍ من السنين أو يزيد باستدراج مسلمين؛ ومسلمين محافظين للعمل معهم ولهم؛ دونما تركيزٍ على «هدايتهم» للمسيحية قبل ذلك. إذ المسيحيةُ نفسها لم تعد الدين الذي يؤمنُ به رجالُ الشركات المتعددة الجنسية، ولا هي الأداةُ الصالحة للاستخدام لتحقيق الأهداف. وطبيعيٌّ أن لا يكون المثقفون المحافظون المسلمون جميعاً من ذوي الاتصالات المباشرة أو غير المباشرة بالإمبريالية والاستعمار. لكنهم يتّسمون جميعاً تقريباً بالتخصص في مجال فهم المتغيرات في عالم الإمبريالية المعاصر. إنهم ما يزالون يحاولون فهم الصراع بين الشرق والغرب بوصفه صراعاً بين المسيحية والإسلام. والواقع أنَّ المسيحية بوصفها نظاماً فكرياً وسلوكياً قد انتهت في الغرب منذ زمن. والعدوانيةُ الغربية تجاه الشرق العربي والإسلامي ليست نابعةً من كراهية الإسلام، ولا من نزعةٍ مسيحيةٍ قويةٍ، بل هي نابعةٌ من حرصٍ على الربح، ومنافسة قاتلة من أجل ذلك؛ ليس مهماً بالنسبة للقائمين عليها أديان الشعوب التي يستغلُّونها. إنّ الدين يُصبحُ مزعجاً بالنسبة للإمبرياليين إذا شكّل عائقاً في سبيلهم أو كان الدافع لمقاومة سيطرتهم. عندها يقاتلونه لكنْ ليس باسم المسيحية.

إنّ مناهج المستشرقين الغربيين القائمة على تصوُّر التاريخ الإسلامي بطريقة تختلف، تأويلاً ونهجاً، عن الصورة المتوارثة بين المسلمين؛ ليست لها علاقة بصراع المسيحية مع الإسلام. بل إنني أزعم رؤيتها في سياقٍ تختلف تماماً يدخل ضمن عملية علمنة العلم الأوروبي وإخراج الروح المسيحية منه. فمنذ القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ الباحثون الأوروبيون في الكلاسيكيات ينظرون إلى «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد؛ باعتباره وثيقةً تاريخيةً هي نتاجُ مراحل تاريخية معينة؛ يخضع للنقاش والنقد مثل الوثائق

الداخل، بدأت السببية الدينية بالتحوّل إلى صياغة ايديولوجية ألغت الحج الجماعي للمسلمين واستبدلته بحج جماعي حربي، الذي سرعان ما استمد تبريراته من صناعة متقنة لتعرُّض الحجاج المسيحيين لسوء المعاملة والاضطهاد من قبل المسلمين. « أمَّا أن يتمكَّن الحجاج المسيحيون من متابعة سفرهم إلى كنيسة القيامة دون أي إزعاج أو خطر... وأن يقدّم، في ذلك الوقت أو قبله بقليل، الخليفة هارون الرشيد مفاتيح المدينة المقدسة وشرف الهيمنة عليها إلى القيصر شارل الكبير، عن يد بطريرك القدس الذي كان بعد في منصبه دون أن يناله حيف أو مكروه؛ نقول أن يحصل كل هذا، فأمر لم يحجم الاوروبيون فيه ـ آنذاك ـ عن إلصاق تهم انتهاك حرمة المدينة المقدسة نفسها من جانب « الكفار » قصد إلقاء الذعر في قلوب المؤمنين والمسافرين لمنعهم من السفر »[٤٢]. كما أن تحوُّل تخريب كنيسة القيامة عام (١٠٠٩) ـ أعيد ترميمها بعد وفاة الخليفة الحاكم ـ ووقوع مدينة القدس تحت سيطرة الأتراك السلاجقة، كانا من العوامل التي جرى استخدامها بشكل جيد، وذلك بهدف تعميق أثرها في المشاعر الدينية لجماهير أوروبا الغربية، وبالتالي خلق حالة قوية من الحماس الديني في صفوفها. وبحركة ملفتة للنظر، استدرك عدد كبير من الاوروبيين أن المسألة تتجاوز حدود الدين، وأن دخول بيزنطة في دائرة السيطرة الاسلامية لن يلبث أن يضع الغرب المسيحي كله أمام خطر كبير. « بعد سنوات عديدة من الرعب والخراب »، كما يقول المؤرخ الفرنسي **هالڤن**.

« هل ينوء عالم البحر المتوسط من جديد تحت غارة البرابرة؟ هذه هي المسألة المقلقة التي طرحت نفسها حوالى عام ١٠٧٥. إن أوروبا الغربية التي أعادت بناء نفسها ببطء خلال القرن الحادي عشر سوف تحمِّل نفسها أعباء الرد: في مواجهة الجموع التركية، حضرت أوروبا نفسها للرد بواسطة الحركة الصليبية »[٤٣].

لقد أسس المشروع الافرنجي سببه الديني، بيد أن سلوكه اللاحق قضى على العمق الروحي الذي كان وجوده السببي ذرائعياً، إذ إنه في الوقت الذي جدد فيه المسلمون اعترافهم بحقوق المسيحيين في القدس، واختاروا طريق المفاوضات والسلام، وأعادوا القدس إلى فريدريك الثاني الذي حكمها من (١٢٢٧ إلى ١٢٤٤)، فإن مدينة المسيح نفسها، بالرغم من كل ذلك، بدت في تلك الفترة ـ بالنسبة للغرب ـ مشروعاً وقد أحاط به النسيان. كما كانت المواجهات الصليبية ـ الاسلامية تتواصل، وعلى امتداد القرن الثالث عشر، « في كل بقعة عدا فلسطين ». فقد أضاع الغرب تبريره الروحي في مواجهته للاسلام، وباتت الحملات الأوروبية بأمسّ الحاجة إلى أهداف واضحة لمعاناتها، خاصة وأنها كانت « تهيم على وجهها... من القسطنطينية (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤) الى مصر (١٢١٨ ـ ١٢٢١) و(١٢٤٩ ـ ١٢٥٠) إلى تونس (١٢٧٠)... »[٤٤].

وهكذا، شكلت السببية الدينية دائرة تحريض، أمَّا حصادها فلم يكن سوى تأسيس الجانب الديني للصراع العصبي بين المسلمين والاوروبيين، والأسوأ من ذلك، انتهت السياسة الصليبية أيضاً إلى تقسيم المركز الروحي لمسيحيي الشرق؛ « وفي الحقيقة، لم تفلح أكثر الحملات الصليبية توفيقاً إلاَّ في الاستيلاء على القسطنطينية البلد

المسيحي، وفي تقسيم الامبراطورية البيزنطية زهاء سبع وخمسين سنة (١٢٠٤ - ١٢٦١) بين الفرنسيين والبنادقة»، كما يقول **توماس ارنولد**[٤٥].

إذا أخذنا ما تقدم بعين الاعتبار، فإن الدوافع الحقيقية لمجيء الافرنج وحربهم ضد الاسلام، لم تكن - كما يبدو من كتابات المؤرخين الغربيين أنفسهم - مجرد استجابة لضرورة دينية، وإنما كانت تعكس حاجات أخرى لأوروبا، غير روحية اعتقدت أن الشرق الاسلامي وحده القادر على تلبيتها، فزحفت اليه.. وبالتالي، يصبح من الضروري وضع الدافع الديني في إطار دوافع أخرى، تحكمت إلى حدّ بعيد بمسار الأحداث ونتائجها. أمَّا الدوافع، فإنها عديدة. وأهمها ثلاثة:

١ - يندرج الاتجاه الحربي نحو الخارج الاسلامي في سياق المحاولات الاوروبية المتعددة، لتجاوز تفاقم الأزمة الداخلية العامة التي أصابت مجمل البنى السياسية، الفكرية والاقتصادية للمجتمع الغربي، منذ بداية القرن العاشر؛ إذ إن حكمة شارلمان التي أشاعت النهوض والازدهار خلال القرنين الثامن والتاسع، لم تلبث أن استُبدلت بفوضى الصراع الاجتماعي الذي وضع الملوك والأباطرة في مواجهة أمراء الاقطاع. أمَّا الازدهار، فقد تحوَّل إلى جمود في أعقاب هجمات الفايكنغ على مركز الحضارة الغربية في الشمال، وزحف الهنغاريين إلى وسط أوروبا حتى شرق المانيا. والكنيسة بدورها لم تكن بمنأى عن هذا التدهور، وهي «التي ظلت منذ القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي، تعرّضت هي الأخيرة لموجة جارفة من الانحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر، فجرف التيار الاقطاعي رجال الدين وتصدَّع سلطان البابوية، وانحط المستوى الخلقي لرجال الكنيسة»[٤٦]. انطلاقاً من موقعها المؤسسي ونفوذها الايديولوجي، سعت الكنيسة الغربية لتطويق سلبيات أزمتها الداخلية وأزمة الغرب في آن واحد: احتواء القوى السياسية المتناحرة، وتعزيز قدرة البابوية على مركزة القرار الأوروبي. لا يستثني هذا السعي الرغبة الدفينة، لتأمين شرعية عالمية لسلطة الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وهي رغبة ازدادت وضوحاً مع تقدُّم مواقع هذه الكنيسة في القرن الحادي عشر، كما أن البابا - بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس - لم يُخف مساعيه وأحلامه في أن يكون الزعيم الروحي الوحيد لجميع المسيحيين في الشرق والغرب. ومن بين هذه الأحلام، تظهر الرغبة في استعادة السيطرة على الكنيسة الشرقية الارثوذكسية، بعد سنوات طويلة من الانقسام والاستقلالية عن القرار الغربي.

لذلك، وما إن وصلت الاستغاثة البيزنطية إلى مسامع الكاثوليك، حتى سارع البابا في تنفيذ مشروعه المثلث الأهداف:

- تشريع الزعامة على مسيحيين الشرق، تحت ستار قيادة الصراع ضد المسلمين، واسترداد الأماكن المقدسة وحمايتها[٤٧].